سيدنا الخضر

قصة : د. سيد شعبان

طالت غيبتي في بلاد الله، وحيدا إلا من هم يلازمني، ثيابي ممزقة، وجسدى واهن، أتعبني سر حاولت تكتمه، أنا درويش في حضرة السيدة، ولي الله الخضر زارني في تلك الغيبة مرة ومرة، في يمناه جريدة خضراء، يحمل سقاء وتمرا، ماؤه أحلى من العسل، تمره غذاء لبطني الضامرة، لم أذق طعم الراحة، تمتم بدعائه الرباني، أعاذني بالله من شر الشياطين، خط بالجريدة طريقا، ينظر شيئا في عالم الغيب، تقول أمي الطاهرة: مكشوف عنه الحجاب!

حديثها عنه عند نومي ترك بصمته في عقلي، يحسبني الآخرون ملتاثا، لا يهم فلي عالم صاف، تحلو الحكاية مع الأوراد؛ عن شيخ ينطق بالحكمة، يمسك بمسبحة خضراء،حباتها مائة إلا واحدة، تكمل الطاهرة: إنه يعرف اسم الله الأعظم!

تدوي الريح وتصفر من هولها الصحراء، تعوي الذئاب، تنبح الكلاب، تتساقط الأمطار، تشتعل السماء وتنذر رعدا وبرقا، ذات العينين الزرقاوين والسارح شعرها في مجاهل الهوى تذهل نفسي عن رغباتها، أبحث عنه لكنه يغيب، أنادي عليه فلا يرد، وأخيرا جاءني طيفه، كنت مشدودا بخيط سحري ناحيته، عاتبني، أطرقت في صمت، مسح على صدري.

في الرؤيا مساحة للبوح، تتقارب المسافات، تختلط الصور، تتعدد الأشكال ومن ثم تتداخل، يربض الشيطان عند حافة البئر المسحور، تخرج أمي إبريق الماء المبارك؛ حين طافت بالبيت جاءت به من زمزم، غطتني بثياب جدي حين كان محرما.

تقول عني العجائز أنني ولدت مختونا؛ لا أعلم لذلك سببا، كما أنهن لا يدرين أنني منبوذ من البنات ذوات الخد الأحمر، لا تكتب لي واحدة رسالة، كما أن أحدا لا يخاف من درويش يعيش في عالم الروح.

وحده يمتلك ترياقي، يمسح بيمينه؛ أرتد فتى قويا، تنبت الشغرات في صدري، يتراقص الهوى في طريقي؛ ترمقني العذراء بنظرة عين.

أتبع خطوه الذي يملأ المحروسة بركة، يقهقه الشيطان الساكن عند حافة البئر، لما حضر الخضر ارتعد، تجمدت وساوسه، تزهر الأشجار ذات الورد الأبيض، يرسم العم محروس نخلة وحمامة فوق باب البيت الطيني الكبير، يصر المطرود من باب الله أن يخدعه؛ في خلفية اللوحة توجد تفاصيل حادثة مضى عليها زمن: شج في جبهتي، حول في عيني اليسرى، يومها تبعت غجرية، حبستني في خزان السمن، مغضبا ضربت الجرار، انساب اللبن، هوت علي بالعصا؛ نمت عصرا، جاء الخضر فرقاني، مسح على صدري.

مطلع الفجر مشيت وراءه، أعطاني العهد؛ لكنه تركني بلا رغبة، مباركا أينما ذهبت، ففي أرض الله متسع لأهل الطريق.

تراودني جنية الليل؛ فللنفس اشتهاء، وللهوى ميل، وللسر كشف، يتراقص شيطان حافة البئر؛ يلقى حصاة تحدث دوامة، أنزل الماء، أدور عكس عقارب الساعة، يتسلل الماء إلى جوفي، أعلم أن رمضان لم ينته بعد، يمد سيدنا كفه فيمنع الماء عن فمي،ما فات كان ريا من الله، يتمتم بدعائه المبارك: أن يغفر الله لي زلتي، يشتاط الشيطان غضبا، يضربه بالجريدة الخضراء» ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا» أتبعه في صمت، أرتدي العمامة الخضراء، جاء بها جدي يوم أن جاور في الأزهر؛ أخبرتكم من قبل أنني مبارك حين ولدت.

ألقى في أذني بالسر.